

لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء السابع : تفسير الآيات ٢٤ - ٨٣ من سورة الأنعام

أ. أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

<http://tafaregdros.blogspot.com>

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

<http://www.muslimat.net>

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

هذا هو لقاءنا السابع من سلسلة لقاءات هذا الشهر المبارك رمضان لعام ١٤٣٤ هـ، أسأل الله عز وجل بمرحمته وكرمه أن يجعله لقاءً مباركاً، وأن يجعلنا ممن أعانه ربه على الصيام والقيام وتقبُّله منه ونفعه به يوم يفرح الناس بأعمالهم.

ذاك اليوم العظيم الذي سنكون فيه شهداء مع نبينا صلى الله عليه وسلم على الأنبياء أنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، فكان هذا الركن -ركن الإيمان بالرسول- من أعظم الأركان التي نعني بها في أركان الإيمان، كوننا سنقف شهداء تربطنا بالأنبياء أوثق الروابط، تربطنا بالأنبياء رابطة الإيمان، فكان من الواجب أن نعني بهذه الرابطة غاية الاعتناء، ونجتهد في فهم مواقفهم وأحوالهم كما ورد في كتاب الله وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

فنبداً في هذه السورة سورة الأنعام سورة التوحيد، نبدأ بالنظر لهذه الآيات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءِإِلَهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۗ ۝٧٤ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُعِيبُ الْآفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُرَى الْقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٧٩ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۖ قَالَ أَتُحِبُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ

أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا
 ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ الأنعام: ٧٤ - ٨٣.

لكن قبل أن نبدأ في الآيات المقصودة نريد أن نبدأ بالآية التي تسبق وهي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ الأنعام: ٧٣ وهذه الكلمة العظيمة التي فيها وصف لخلق السموات والأرض بأنه بالحق، سيظهر بيانه في الآيات الآتية، يعني بمعنى أنّ الله عزّ وجلّ خلق السموات وما فيها والأرض وما فيها بالحقّ، فما هو الحقّ الذي سنعرفه؟ سيتبين من خلال محادثة إبراهيم عليه السلام لقومه أن الله خلق السموات وما فيها والأرض وما فيها بالحق؛ أي لإظهار هذا الحقّ، والحقّ سيتبين لنا إن شاء الله من خلال موقف إبراهيم عليه السلام وإظهاره له.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ إذن ابتدأت الآيات ببيان عقيدة إبراهيم عليه السلام في الأصنام وأنه يرى أن من عبدها فهو في ضلال مبين، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ وهذا تقرير آخر يبين أن إبراهيم عليه السلام صاحب عقيدة صحيحة لأنه استهجن ورفض عبادة الأصنام، ورأى أن الحال التي كان عليها أبوه وقومه أنّها حال الضلال، والله يقول ويخبر أنه أرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وأنه كان من الموقنين، لما سيأتي بعد ذلك ماذا سيكون حاله؟ أي لما تأتي الآيات التي بعد وتناقش رؤيته للكواكب وكلامه عنها ماذا سيكون بعد أن تقرر عقيدته في الأول؟ سيتبين أن هذا نوع من أنواع المحاجة وليس شكاً أبداً، وإنما هذا نوع من أنواع المحاجة .

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّيٰ مَاذَا حَصَلَ لِلْكَوْكَبِ؟ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلِينَ .

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّيٰ مَاذَا حَصَلَ؟ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ
الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فكيف وهو يناشد ربه ويناجيه ويطلبه؟

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّيٰ هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴾ أي هذا الذي يمكن أن تتكلموا عنه في الكواكب التي تعبدونها إما كوكبًا بازعًا ذا نور أو
القمر أو الشمس وكلها أفلت، إذن أنا بريء مما تشركون ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِيًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ هل قبل قومه؟

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ حاجوه، سنفهم ما معنى حاجتهم له وماذا ردّ عليهم وكيف أخبرهم أن الله هداه وأنه لا
يخاف ما يشركون به إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وهنا
يأتي مسألة الخوف:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يجب الله من هو الفريق الأحق بالأمن:

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ويقول الله في نهاية
هذا السياق وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ إِذْنٌ هَذِهِ حجة، هذا من باب التنزل مع
الخصم ومحاجته نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ إذن نفهم أن هذا نوع من أنواع المحاجة
وفهمنا على الإجمال هذه المحاجة .

نقرأ الآن كلام الشيخ السعدي سيتبين لنا من خلاله مجموعة من الفوائد وتفصيل الآيات :

قال السعدي رحمه الله: وإذ قال لأبيه {أَزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} إلى آخر القصة يقول تعالى:
واذكر قصة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، مثنيًا عليه ومعظمًا في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك .

إذن لما تذكر هذه القصة ليكن في قلبك الشناء على إبراهيم عليه السلام وليكن في قلبك تعظيمه،
ولتروا كيف كان حاله في الدعوة إلى التوحيد ونهيه عن الشرك؟

إذ قال لأبيه -وهو في حال دعوته للتوحيد ونهيه عن الشرك- {أَزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} يعني: لا
تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، -وأنت تتخذها آلهة؟- {إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ} لماذا حكم عليهم بالضلال؟ حين عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئًا، وتركتم عبادة
خالقكم، ورازقكم، ومدبركم .

يقول الله {وَكَذَلِكَ} حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه، إذن إبراهيم عليه السلام جمع بين أمرين:

✦ بين أن يكون هو موحد

✦ وأن يكون داعي لتوحيد

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: ليرى ببصيرته، ما اشتملت عليه من
الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة. يعني السموات والأرض -كما قرأنا في الآية السابقة- خلقت
بالحق، يعني خلقت وفيها من الأدلة الدالة على الحق ما يكفي من كان صادقًا يريد الحق، وإبراهيم عليه
السلام ممن رأى ببصيرته ما اشتملت عليه (السموات والأرض) من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

{وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ} فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب.

بمعنى: أن اليقين الذي هو درجة عالية من درجات الإيمان يحصل بأي شيء؟ بحسب تكاثر الأدلة عند
صاحبها

يقول: فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب .

هذه الجملة مهم جداً أن نفهمها، فمن عطايا الله للعبد الصادق المقبل على ربه أن يريه آيات، يريه براهين، سواءً يراها في السموات والأرض، أو يراها في التشريع، أو يراها في الأحداث والأقذار التي تدور حوله، المهم أنه يرى في ملكوت السموات والأرض، إما في خلقها أو في تديرها، أو في الأقدار التي تجري حولها، أو في الشرع الذي يضبطها ويصلحها، يرى أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على الحق، وأن الله هو الحق وأن له كمال الصفات، فيتحقق له من خلال النظر ببصيرة في كل شيء اليقين، يتحقق له اليقين .

لو نريد أن نربط الآية بما تعلمنا في آية سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَوَالِكُنَّبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَوَالِكُنَّبِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم المزيد من الإيمان، كيف يطلب الإنسان لنفسه المزيد من الإيمان؟ (المزيد من الإيمان كيف يكون؟)

بالنظر وبالتفكير، كلما ازدادت تفكيراً، كنت أكثر علماً، وكلما كنت أكثر علماً، زدت في يقينك.

إذن هذا يقتضي أموراً ثلاثة:-

١. أصحح إيماني
٢. وأزيد إيماني بالعلوم
٣. وأستمر عليها

فهنا أحد وسائل زيادة الإيمان، بأي شيء؟ بالعلم، فيصبح معك بصيرة، إذن تُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، إذن هذه هي الوسيلة التي يصبح بها الإنسان موقن، أن يفتح الله بصيرته فيرى في ملكوت السموات والأرض ، المخلوقات والأقذار والشرع الذي أتى و ضبط أهل السموات وأهل الأرض .

قال: فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيمان والعلم التام بجميع المطالب

كلما قامت الأدلة أكثر، حصل اليقين أكثر، وحصل العلم التام بجميع المطلوب من الإنسان .

نرى الموقف مع إبراهيم عليه السلام الآن من جهة الأحداث التي فيها محاجة لقومه، يعني أن الآية الأولى والثانية تقرير لعقيدة إبراهيم عليه السلام، براءته من الشرك وتضليله للشرك وبقينه بالتوحيد، والوسيلة لذلك وهو أن بصيرته كانت ترى آثار كمال صفات الله في كل شيء .

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} قال :أي: أظلم الليل {رَأَى كَوْكَبًا} لعله من الكواكب المضيئة، لأن تخصيصه بالذكر، يدل على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة. على أن الزهرة كوكب مضيء يضيء عن غيره

قَالَ {هَذَا رَبِّي} أي على وجه التنزل مع الخصم ، يعني : لا الاعتقاد ولا الشك، وإنما يتنزل مع من يخاصم، والتنزل مع الخصم هذه كلمة معروف معناها يُقصد بها أنك إذا أردت أن تقيم الحججة على أحد فلك طريقان:-

إما أن تظهر الحق الذي معك وتبينه وتفنده، فتقول: الله هو الإله لأن له من الصفات كذا ولأن له من الأفعال كذا وكذا وتثني على الله بما هو أهل له.

أو تأتي تقول: سنفترض أن إلهكم هو الحق تعال ننظر إلى صفاته، لما تقول أفترض أن إلهك هو الحق، كأنك تقول : سأسلم لك أن إلهك هو الحق، سأسلم لك أن بوذا هو الحق، هل بوذا مع الناس كلهم؟ هل له صفات كذا وكذا؟ هل يفعل كذا؟ هل لما تحتاجونه يأتيكم؟ .. إلخ .

إذن الحق يظهر بطريقتين: إما بإظهار الحق. وإما بإبطال الباطل.

فالنوع الثاني الذي هو إبطال الباطل يبدأ بالتنزل مع الخصم، فيبدأ بقول: سأسلم لك أن هذا هو الإله، فانظر إلى صفته يفعل كذا وكذا، أو لا يفعل كذا وكذا .

هم قوم يعبدون الكواكب، فهو تنزل معهم، قال: تقولون الكواكب هي التي تستحق أن تكون إلهًا، ومثّلت لها أصنامًا في الأرض، إذن هذا الكوكب المضيء سأعتبره هو ربي، (فلما جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قال هذا ربي)، إذن هذا اسمه التنزل مع الخصم، لا شكَّ إبراهيم عليه السلام ولا فَتَشَّ هو كان متيقن من هو ربه، لكن القوم مصرين أن أصنامهم هذه تمثل آلهتهم التي هي عبارة عن الكواكب في السماء ، فقالوا الكواكب في السماء تُعبد لأنها تفعل !

قال هذا الكوكب المضيء ربي، { قَالَ هَذَا رَبِّي } أي: على وجه التنزل مع الخصم أي: هذا ربي، فهل ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان .

{ فَلَمَّا أَفَلَ } أي غاب ذلك الكوكب، قال: { قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ } أي: الذي يغيب ويختفي عن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبراً له في جميع شؤونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخاذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟! لا بد أن يكون الإله قريب مجيب ...، لا يغيب إذا سألته أتاك منه العطية، ولا زال التنزل قائماً .

إذن انتفى أن يكون ذاك الكوكب عظيم اللمعان هو الإله { فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي } أي طالعا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها، فهو مختلف قريب وإضاءته أقوى، فقال هذا ربي، **يقول الشيخ: تنزلاً.**

{ فَلَمَّا أَفَلَ } وكانت له نفس الصفة، قال { لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } فأظهر لهم الطريق، فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه ، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته، فلا معين له.

فعلّمهم ، أنت الآن إذا احترت ووجدت أن الطرق التي حولك لم يظهر فيها الحق ماذا تفعل؟ تبذل جهدك أن تستهدي الله، عبادة الاستهداء عبادة مُهملة، قليل من يعتني بها، وتجذب الناس حتى لما يختلفون في مسائل غاية في الخطورة يظنون أن بحثهم العلمي أو مناقشاتهم العلمية هي السبب الوحيد لوصولهم إلى الحق، والحقيقة أن الاستهداء وهو الافتقار إلى هداية الله والعلم اليقيني أن من لم يهده الله فلا هادي له، وأن من لم يعنه فلا معين له، هذه توصل الإنسان إلى الحق، تيسر عليه الدرب، تكون سبباً لإنارة بصيرته، ومن هياً نفسه لهذه العبادة -عبادة الاستهداء- وأظهر فقره، وأصبح له من الدربة عليها ستجده يستهدي في كل شأنه، وتجده قد امثل أمر النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه لما علمه هذه الكلمات العظيمة: "اللهم اهديني وسددني"، فالنبي صلى الله عليه وسلم علم علي هذا الدعاء لتكون منه عبادة الاستهداء، فليس كل من عرف الحق هدي به.

على كل حال في هذه المناظرة بين لهم أن من يأفل ويغيب لا يصلح أن يكون إلهًا، وأن شأن الإنسان أن يفتقر إلى ربه من أجل أن يهديه.

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ} أي أكبر من الكواكب ومن القمر، {فَلَمَّا أَفَلَتْ} تقرر حينئذ الهدى واضمححل الردى، فماذا يمكن أن يكون غير هذه الكواكب يمكن أن تكون إله ؟ بدأهم من الأقل إلى الأعلى، من النجم اللامع البعيد، إلى القمر القريب إلى الشمس الكبيرة، لما أفلت، اشتركت كلها في أنها تأفل وتغيب، وفي أنها تكون موجودة ثم تذهب وهناك من يصرفها، {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} إذن هذا الذي ادعيتهم بأنه إله إنما هو ليس بالإله المستحق، لماذا؟ لأن هذا الذي تجعلونهم شركاء لله وتعبدهونه من الأصنام والأجرام شيء يتحرك يظهر ويختفي، إذن هناك من يديرها وليست هي التي تدبر، فاستدل على ذلك بأفولها، أنها آفلة، تأفل وتغيب. فإن هذا الأفول، أي يطلع ويغيب هو تغير من حال إلى حال، وهو دليل على أن هناك من يغير حاله.

يقول {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} حيث قام البرهان الصادق الواضح، على بطلانه.

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أي وجهت وجهي لله وحده مقبلاً عليه ومعرضاً عمن سواه، إذن هذا هو التوحيد، الإقبال على الله والإعراض عمن سواه {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان .

ما هو البرهان ؟ أن هذه التي تأفل وتظهر إنما هناك من يديرها ولا يمكن أن تكون هي المدبرة، فهو اتجه بقلبه لمن يدير هذه الكواكب وليست هي الكواكب المدبرة .

يقول الشيخ: وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظر من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال أنه مقام نظر في حال طفولته فليس عليه دليل.

وهذه بعض الفرق التي خالفت أهل السنة قالت : أن هذه الآيات دليل على أن أول واجب على العبيد هو الشك والنظر، وهو ما تدعو إليه الفلسفات الحديثة والأفكار الليبرالية إلى (أن لا تسلم للدين بل

شك في كل شيء في الدين ثم تيقن)، وإنه والله هذا من أفسد الفساد، فإن الرجل يشك ولا يعود لليقين، كيف تشك في الله؟!

أفي الله شك وفطر الخلق كلهم تدل على أنه الخالق؟ فذلك من أعجب العجب، ولذلك كما قال الله عز وجلّ في سورة إبراهيم بعد أن أخبرنا عن نبأ الذين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم قوم نوح وعاد وقوم ثمود {وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} والفطر كلها تشهد بذلك، كل الفطر مجبولة على اعتقاد أن لهذا الكون إلهًا عظيمًا خلقه وهو الذي يدبره، فليس في الله شك، ولا يصح أن نقول أن هذه الآيات تدل على الشك، إنما هذا في مقام المحاجة، والآية الأخيرة في السياق تظهر هذا جيدا .

يعني الآيتان الأوليان تظهران عقيدته، والآية الأخيرة أيضا تظهر أن هذا إنما في مقام المحاجة، { وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ } قال لهم { أَتَحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي } أي: أي فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ أي أنتم قوم معرضون لا تريدون الحق، فأما من هداه الله ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه هو بنفسه يدعو الناس لما هو عليه، أي: لا تحاجوني وأنتم لا تعرفون الحق فتتكلمون بهواكم، ويقول لهم: { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } فالظاهر أنهم يهددونه، ولا زال هذا التهديد إلى اليوم، فإنك تسمع من المشركين الذين أشركوا القبور وأصحابها مع الله في النفع والضرر، تسمعهم يقولون: لا تتكلم عن فلان يضرك، لا تتكلم عن فلان يؤذيك، فهذا المفهوم الخرافي مفهوم الخوف من أصحاب القبور والخوف من المعبودات من دون الله كثيرا ما يُبتلى الإنسان عليه ببلايا ليختبر الله يقين الإنسان.

مما يُحكى في بلد من البلدان أن قبرا كان في وسط طريق يريدون أن يشقوه ويعمرون، في وسط الطريق هناك ضريح لأحد الموتى الذي يعتبرونه وليًا، فأهل المنطقة كانوا في حال خوف من أن يهدموا الضريح فيؤذون، فخافوا وامتنعوا من هدمه، ومنعوا من كلفته تلك الدولة بشق الطريق أن يستخدم آلاته للحفر ولتمهيد الطريق، لما امتنعوا أتى كبير المهندسين المسؤول عن هذا العمل للموقع وأراد أن يبين لهم أنه لا شيء في ذلك وبنفسه سيشغل الآلات وسينبش الضريح ويكسره ويخرج ما فيه ويكمل عمله، فما أن نزل هذا المهندس من سيارته إلا وقع أرضًا وانكسرت قدمه! فجاء البلاء، وحصل عند الناس الذين في أصل قلوبهم عدم وجود اليقين، بل في أصل قلوبهم الشك في قدرة الله واليقين في قدرة الولي، فانضم

إليهم هذا المهندس وأتاه بعد أيام من أجل تحقيق مراده، ووقف على ضريحه ووعده بأنه سينقله إلى مكان بارز، يبني له ضريحاً في مكان بارز على أن يسمح له بنقل ضريحه من هنا وشق الطريق!!.

فالله المستعان، الله المستعان على البلايا التي يُختبر بها الإيمان، إن العبد لا يثبت على الإيمان حتى يتلى بلايا عظيمة ، فاللهم ثبتنا على دينك واجعلنا على اليقين.

ومن أعظم البلايا تخويف الناس بعضهم لبعض بغير الله .

قال **{وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّنِي وَلَنْ تَنْفَعَنِي** ، وسمع هذه الآية جيداً **{إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}** نعم يُصاب الإنسان بأشياء يشاءها الله اختباراً وامتحاناً وليس هم الذين يشؤونها، يعني وقت مشيئة ربي بأن يلحقني شيء من الضرر فالأمر إليه وليس للمعبودات الباطلة التي لا تضر ولا تنفع، فإذا حصل ضرر من المعبودات هذا باطل، وإثبات أن النفع والضرر من الله هذا هو الحق، ويحصل على حسب مشيئة الله

{ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.

فهو الذي وسع كل شيء علماً وأحاط بكل شيء سبحانه وتعالى، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، وإذا شاء خلاف ذلك كان على حسب مشيئته، ومشيئته كلها علم وحكمة.

{ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } أي تعتبرون أن هذه الأصنام جامدة ، أو الموتى بالية لا ينفعون ولا يضررون .

إذن لا بد أن تنتبه جيداً: **{لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} {لَا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}** فإذا شاء ربي شيئاً وقع علي، وربما وقع في الزمن الذي تظنون فيه أن آلهتكم هي التي ضرتني ، فنسأل الله أن يثبتنا ولا يفتنا، ويبقى يقيننا أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله .

يقول: **{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} وحالها حال العجز وعدم النفع {وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} إلا بمجرد اتباع الهوى . ليس لكم دليل على ما تفعلون إلا أنه هواكم، والهوى أمر خطير إذا دخل في قلب العبد أصبح ينتصر لنفسه، ينتصر للحال الذي كان عليه آباؤه، ينتصر لقول قائله ولو كان في حال ضيق من المناظرة، ينتصر لنفسه لما قواه نفسه بمجرد أنه هواه .**

{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين، من أحق بالأمن؟ لا تخيفوني، من أحق بالأمن؟

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} وَلَمْ يَلْبِسُوا : أي يخلطوا {إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} من المخاوف والعذاب والشقاء ، أولئك لهم الهداية إلى الصراط المستقيم فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً لا بشرك ولا معاصي وماتوا وهم تائبين حصل لهم الأمن التام والهداية التامة ، أين سيحصل لهم الأمن التام؟ يوم القيامة، وأين تحصل لهم الهداية التامة؟ أيضاً يوم القيامة، يهتدوا إلى أي شيء؟ يهتدون إلى منازلهم في الجنة، نسأل الله من فضله .

وهل هذا معناه أنه لن يحصل لهم الهداية التامة والأمن التام في الدنيا؟ الجواب : يحصل لهم الأمن التام والهداية التامة في الدنيا، فإنهم آمنين في نفوسهم من أخلاط الأفكار، لهم سندهم وصمدهم الذي كلما خافوا لجؤوا إليه، إن هؤلاء المؤمنين يقع عليهم من الخوف والضيق ، يقع عليهم من الاكتئاب والحزن ما يقع مثلهم مثل الخلق، تأتي عليهم من صوارف الأحداث ما تأتي، لكن العجيب -وشأن المؤمن كله عجب- أنهم أول ما يقعوا في الخوف تفرغ نفوسهم إلى ربه الصمد، فتجدهم ينادون ويناجون، تجدهم يعرفون إلى أين يتجهون، إنهم لا يتوهون، لا يتوهون ! وهذا أمر عجيب .

{ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [القصص : ٢١] خائفاً ، الخوف ليس محرم ولا ممنوع، يعني ليس محرماً قدرًا على المؤمنين، لا يمكن أن تتصور أنهم لا يخافون ، إنهم يخافون، ولكن انظر ماذا يفعلون { قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } .

لما توجه تلقاء مدين قال { عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ } لما ورد ماء مدين وسقى لهما تولى إلى الظل { فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } فهذا حال المؤمنين لهم الأمن التام والهداية التامة، طبعاً تماماً لما يلقون ربه .

هؤلاء الذين لم يشركوا ولم يقعوا بمعاصي، بمعنى أنهم ليسوا من أولئك القوم المصيرين أصحاب الكبائر المدمنين ، إنما يقع منهم الخطأ ويسارعون إلى التوبة والاستغفار ، أسأل الله بكمه أن يقبل توباتنا ويغسل حوباتنا جميعاً .

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن فإنهم يأمنون من الخلود في النار ويحصل لهم الهداية إلى الطريق المستقيم وإن لم يحصل لهم كمالها ومفهوم الآية الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمان ، لم يحصل لهم الهداية ولا أمن بل حضهم الضلال والشقاء ، يعني الذين لم يؤمنوا أو آمنوا وألبسوا إيمانهم بظلم (والظلم المقصود به الشرك) فأولئك لم يحصل لهم لا هداية ولا أمن بل حضهم الضلالة والشقاء .

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ } أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها ، يعني أظهر عليهم الحق وبين لهم أن ما يعبدون من كواكب لا تصلح أن تعبد فأيهما يختار الإله وكيف يكون هذا الإله يتصرف ويقلب ويأفل ويغيب؟ لا بد له من مصرف!

{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ } إذن نحن نعتقد أن إبراهيم عليه السلام رفعه الله درجات في الدنيا والآخرة، ما السبب؟

قال: فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصا العالم العامل المعلم، يعني هذه الثلاثة الصفات سبب لرفعة الدرجات، أن يكون عالما بنفسه، وعاملا لما يعلم، ومعلما لما عمل به وتعلمه.

قال: فإنه يجعله الله إماما للناس، بحسب حاله ، يعني بحسب توفر الثلاث الشروط فيه سيصبح إماما مع زيادة علمه وعمله بعلمه وتعليمه للعلم يصبح إماما .

ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره ، المعنى: أن نظرك لإبراهيم عليه السلام سيجمع الآن أمرين: اجمع أولا اعتقادك في إبراهيم عليه السلام ومكانته عند الله، مما يجعلنا نحبه ونتقرب إلى الله بحبه، فإنه من أنبياء الله، خليل الله، فنحب نبينا صلى الله عليه وسلم، ونحب إبراهيم عليه السلام حبا عظيما، ونجعل إماما لنا، ومن جعله إماما لنا أن ننظر حاله ونقول: كيف أصبح إبراهيم عليه السلام إماما؟ كيف رفع الله عز وجل درجاته؟

يقول الشيخ: خصوصا العالم العامل المعلم، إذن انظر إلى حال إبراهيم وانتفع أنت ، تنتفع بأي شيء؟ تصبح عالم، وتتعلم، فتعمل بما علمت يزيدك الله علماً، تُعلم ما علمت يرفعك الله ويجعلك إماماً للناس، طبعاً كل بحسب حاله، في زمانه، في قريته، في أسرته، الإمامة هذه تختلف على حب أحوال الناس .

قال: ترمق أفعاله، ماذا يعني يصبح إماماً؟ ترمق أفعاله، الناس ينظرون إليه من حوله المحيطين به ينظرون إليه، ممكن أن تنظر إليه عائلته، ممكن أن تنظر له قريته، ممكن أن تنظر إليه مدرسته، تقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره. قال تعالى {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} لا تنسوا العالم العامل المعلم.

ثم يقول تعالى: {نَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} حكيم فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له، فإذا أعطى الله عز وجل العلم والحكمة لأحد ورفع، فأنت تعلم أن الله لا يرفع في دينه إلا من كان له شأن عند ربه، والله حكيم عليم .

فتجعل هؤلاء الذين رفعهم الله في دينه تجعلهم أمام عينيك قدوة لك، لا تحملهم ولا تقل العالم الإسلامي يفتقد القدوات، إننا أكثر أمة تملك قدوات، ليس في البشرية في تاريخها أحد يملك قدوات مثلنا ، فأما إذا نظرت للأنبياء فهم جميعاً قدوتنا، وأما إذا نظرت إلى الصحابة فأنت تجد أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خير الناس بعد الأنبياء، فكيف تفتقد القدوات؟! لكن قل : لقد أهملنا القدوات، لقد قصرنا في حق أنفسنا وحق أبنائنا في بناء عقيدة عظيمة وهي عقيدة الولاء وأصبحنا نعقد ولاءاتنا على الخلق حولنا .

عَظَّمَ اللَّهُ حَقَّ التَّعْظِيمِ، واجعل النبي صلى الله عليه وسلم أسوتك، واجعل الأنبياء الذين كرمهم الله وجعل لهم منزلة ومكانة أمام عينيك أفعالهم وأحوالهم التي وصفت لك، إنك تقرأ أخبار هؤلاء الأنبياء ليحتلوا في قلبك مكانة، لأنك يقينا ستجتمع بهم . نسأل الله عز وجل أن يكون اجتماعا مشرفا طيبا مباركا، وأن يكون أحسن لقاء، وأن يكون لقاءنا بك يارب خير لقاء ويكون خير أيامنا يوم أن نلقاك.

نحن على يقين أننا سنرى هؤلاء الأنبياء وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وسنكون شهودا على أقوامهم، سيسأل الله عز وجل الأقوام ينكرون أن الأنبياء بلغوا الرسالة، فيقول الله للنبي -لنوح

وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام جميعا: هل لكم شهداء؟ فيقولون نعم محمد وقومه! فنكون ممن شهد لهؤلاء الأنبياء، فكان الواجب أن تكون عقيدتنا في الأنبياء غاية في البيان .

فاعقدوا في قلوبكم حبهم وتتبع آثارهم ومعرفة أحوالهم، ولا تقرأ قصص الأنبياء إلا من كتاب الله، اقرأ وافهم كيف أتت أخبارهم، إن الله لما أخبرنا في سورة الأنعام {وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق}، أخبرنا عن قصة إبراهيم عليه السلام مع ما في السموات والأرض وكيف أنه استدل بما في السموات والأرض على الحق ، وأن هذا الذي يتصرف في السموات الأرض تراه يتصرف ينتقل يصرف لا بد له من مصرف ، فالله عز وجل هو المدبر المصرف سبحانه وتعالى عما يشركون .

أسأل الله بمنه وكرمه أن نكون ممن والى أنبياءه ورسله وأحبهم وجعلهم قدوات وسار في طريقهم واعتنى بحالهم، وعلى رأسهم نبينا صلى الله عليه وسلم، وإبراهيم عليه السلام، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.